«أتمنى إذا خسرت ثروتي ألا أخسر جمالي وأناقتي»

صباح في الذكرى الأولى لرحيلها.. بأغنياتها دخلت إلى كل بيت.. وبإنسانيتها وشفافيتها تربعت على كل قلب

وائل العدس

قبل خمسة أيام مرت الذكرى الـ٨٨ لولادة الفنانة اللبنانية صباح الملقبة بـ«الشحرورة»، وبعد عشرة أيام تمر ذكرى وفاتها الأولى.

رغم تقدمها في السن، رفضت أن تشيخ وأن تعتزل الغناء، واستمرت في إجراء المقابلات والمشاركة في الاحتفالات الفنية، ومن آخر أغنياتها «شو فيها الدني» التي تم تصويرها بطريقة الفيديو كليب.

وكانت صباح رمزاً للأناقة، وعرفت بشعرها الأشقر الغزير المتدلي على كتفيها حتى ارتبطت تسريحتها باسمها، وكانت تردد: «أتمنى إذا خسرت ثروتي ألا أخسر جمالي وأناقتي»، فاستمرت تقاوم الشيخوخة بالغناء والحفاظ على أناقتها واستمرارية حضورها الإعلامي، حتى الرمق الأخير.

خيبات وجراح

تعد صباح كتاباً مفتوحاً على الأمجاد ويحار الباحث في رحلتها عند أي محطة يقف فيها، فلم يكن مشوارها في الحياة مكللاً بالورود، بل كانت هناك خيبات وجراح لم تغص الأسطورة في تفاصيلها لأنها أرادت أن تشق طريقها بالفرح إلى قلوب الناس، وكان لها ذلك، فهي من خلال أغنياتها دخلت إلى كل بيت، ومن خلال إنسانيتها وشفافيتها تربعت على كل قلب.

ولدت صباح في ١٠ تشرين الأول في العام ١٩٢٧ في وادي شحرور، بدايتها الفنية كانت في صغرها في لبنان، واستطاعت أن تتميز بشهرتها المحلية، حتى استطاعت لفت انتباه المنتجة السينمائية اللبنانية الأصل آسيا داغر التي كانت تعمل في القاهرة، فأوعزت إلى وكيلها في لبنان قيصر يونس لعقد اتفاق معها لثلاثة أفلام دفعة واحدة.

ذهبت الصبوحة إلى مصر برفقه والدها ووالدتها ونزلوا ضيوفاً على داغر في منزلها بالقاهرة، وكلف الملحن رياض السنباطي بتدريبها فنياً ووضع الألحان التي ستغنيها في الفيلم، وفي تلك الفترة اختفى اسم «جانيت الشحرورة» وحل مكانه اسم «صباح» في فيلم «القلب له واحد»، ويقال إن السنباطي لاقى صعوبة كبيرة في تطويع صوتها وتلقينها أصول الغناء لأن صوتها الجبلي كان معتاداً على الأغاني البلدية المتسمة بالطابع الفولكلوري الخاص بلبنان وسورية، وهي شقيقة الممثلة لمياء فغالي.

شاركت في السينما المصرية، ولها عدد كبير من الأفلام التي تعتبر هي إحدى نجماتها، ذلك بالإضافة إلى عدد كبير من الأغاني.

وتعتبر الشحرورة ثاني فنانة عربية بعد أم كلثوم في أواخر الستينيات تغني على مسرح الأولمبيا في باريس مع فرقة روميو لحود الاستعراضية وذلك في منتصف سبعينيات القرن العشرين، كما وقفت على مسارح عالمية أخرى عديدة.

«كنز الأسطورة»، هي آخر مسرحياتها وكان إلى جانبها بالمسرحية الفنان جوزف عازار وزوجها السابق فادي لبنان والفكاهي كريم أبو شقرا وورد الخال والأمير الصغير.

أما آخر أعمالها فكانت أغنية «يانا يانا»، التي سبق لها تقديمها بالسابق، إلا أنها عادت وقدمتها بتوزيع موسيقي جديد وشاركت معها الغناء رولا سعد.

ولم يحل ذلك دون احتلالها المركز الأول في المهرجانات اللبنانية والعربية وكذلك الأوروبية، فهي أول فنانة ترجمت الموال والأوف إلى الفرنسية وغنت «ع الندى الندى» في نيويورك، وبلجيكا، ولاس فيغاس، وقدمت خمسة آلاف أغنية وأكثر من ٢٠ مسرحية غنائية، إلى جانب عدد كبير من الأفلام التي احتلت بطولتها والمسلسلات التي شاركت فيها على مدى ٦٠ عاماً من العطاء والنجاح والإيمان بالإنسان.

> أوصت بعدم البكاء وبالفرح والرقص ليكون يوم وفاتها فرحاً وليس حزناً

زيجات

اشتهرت صباح بزيجاتها العديدة، حيث تزوجت نجيب شماس خمس سنوات، وخالد بن سعود بن عبد العزيز آل سعود، وقضت معه عدة أشهر وحصل الطلاق بسبب ضغط من عائلته لتطليقها منه، وتزوجت أنور منسي (عازف كمان مصري ووالد ابنتها هويدا)، وقضت معه أربع سنوات، وأيضاً أحمد فراج (مذيع مصري)، وقضت معه ثلاث سنوات، والفنان رشدي أباظة، وقضت معه خمسة أشهر، والفنان يوسف شعبان واستمر الزواج شهراً واحداً، والنائب يوسف حمود، وقضت معه سنتين، والفنان وسيم طبارة، وقضت معه أربع سنوات، والفنان فادي لبنان، وقضت معه سبع عشرة سنة.

وكانت ترى أن أغلبية أزواجها كانوا يستغلون شهرتها وثروتها لمصالحهم، وهي تقول إنهم يسمونها «مدام بنك» لأنها تنفق المال من غير تفكير على من تحب.

أعمالها

شاركت في السينما المصرية، ولها عدد كبير من الأفلام التي تعتبر هي إحدى نجماتها، ذلك بالإضافة لعدد كبير من الأغاني.

لها ٨٣ فيلماً بين مصري ولبناني، و٢٧ مسرحية لبنانية، وما يزيد على ٣٠٠٠ أغنية، ووقفت على مسارح عالمية أخرى كأرناغري في نيويورك ودار الأوبرا في سيدني، وقصر الفنون في بلجيكا وقاعة ألبرت هول في لندن، وكذلك على مسارح لاس فيغاس وغيرها.

كما شاركت في الكثير من المهرجانات أمثال: بعلبك، جبيل، بيت الدين. ومن المسرحيات التي قدمتها: «موسم العز»، «دواليب الهوا»، «القلعة»، «الشلال»، «ست الكل»، «حلوة كثير»، «عصفور سطح»، «فينيقيا»، «شهر العسل»، «الأسطورة ١»، «كنز الأسطورة» وهي آخر مسرحياتها، وكان إلى جانبها بالمسرحية الفنان جوزف عازار وزوجها السابق فادي لبنان والفكاهي كريم أبو شقرا وورد الخال والأمير الصغير.

أما أشهر أفلامها فهي: «أيام اللولو»، و«المخطوف»، و«ليلة بكى فيها القمر»، و«غيتار الحب»، و«هذا ما جناه أبي»، و«القلب له واحد»، و«الأيدي الناعمة»، و«شارع الحب»، و«الآنسة ماما»، و«مجرم في إجازة»، و«طريق الدموع»، و«شارع الضباب»، و«معبد الحب».

غنت للملحنين كبار أمثال فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب ورياض السنباطي وكمال الطويل ومحمد فوزي ومحمد الموجي.

من أبرز أغنيتها: يا دلع دلع، ساعات ساعات، ليلتنا سعيدة، زي العسل، عالعصفورية، أحبك ياني، عاشقة وغلبانة، يا رموش العين.

حياتها في مسلسل

خلال عام ٢٠١١ أعد مسلسل يسرد قصة حياة الشحرورة التي جسد دورها الفنانة اللبنانية كارول سماحة.

ورصد مسيرتها على الصعيدين الفني والشخصي من سن السابعة عشرة، ويغوص في حياتها تفصيلياً، ولم ير صباح كإنسان من دون سلبيات، بل كشف ما هو إيجابي وسلبي في شخصيتها في آن معاً.

ويعالج المسلسل المشاكل التي تعرضت إليها الشحرورة منذ مراهقتها في لبنان، وتبنيها في مصر، أولادها، والأزواج، إضافة إلى عائلتها، والكثير من الأمور المتأزمة، والمفرحة على حد سواء.

شهادة

يتذكر الفنان السوري الكبير دريد لحام اللقاء مع صباح العام ١٩٦٤ حيث كانت بطلة «عقد اللولو» وكيف شعر في أول مشهد تصويري بالرعب والارتباك بوقوفه أمام نجمة النجمات وهو كان في بداية مشواره.

وصية

بعد وفاتها، أعلنت كلودا عقل ابنة شقيقة الشحرورة وصية خالتها، فتوجهت للجماهير قائلة إنها تودعهم وتوصيهم بعدم البكاء وبالفرح والرقص وأنها تمنت أن يكون يوم وفاتها فرحاً وليس حزناً.

كما كتبت أن الشحرورة أوصتها بأن تقول لجمهورها إنها تحبهم وتطلب منهم أن يظلوا يتذكرونها ويحبونها.

شائعات مميتة

قبل وفاتها، أصابتها شائعات كثيرة كانت تفيد بأنها ودعت الحياة، لكنها أكدت بأيامها الأخيرة أنها لم تعد تنزعج من شائعات الوفاة التي تلاحقها كل أسبوع، ولكنها في المقابل تزعج أهلها بمصر وبيروت لتلقيهم برقيات تعزية مع كل شائعة ما يثير قلقهم عليها.

الشحرورة قالت: «لا أخاف الموت أبداً خاصة أنهم يقولون إن من يمت يرَ أحباءه الذين توفوا منذ زمن وأنا اشتقت لأهلي وأقاربي وأصدقائي الذين فارقوني وأود رؤيتهم بعد كل هذه السنوات».

أكثر ما يسعد صباح في أزمتها الصحية أنها تستطيع الإنفاق على نفسها، وهذا ما أوضحته قائلة: «الحمد لله أتلقى علاجي أثناء حضوري هنا ببيروت فقد أصابتني عدة جلطات بمناطق مختلفة من الجسم، ولكن أنا سعيدة أن باستطاعتي أن أتلقى العلاج على نفقتي، وخاصة أن هذا المرض يمنعني من القيام بأشياء كثيرة لذلك أنا استعنت بممرضتين للاهتمام بي، بالإضافة إلى وجود أقاربي بجانبي وجوزيف غريب الكوافير الخاص بي والذي يهتم بي ويعتبرني مثل أمه.. فأنا عمري ما شعرت بالوحدة في وجودهم».

اقتبس هذا الفيلم من الرواية الشهيرة «الأسود والأزرق»

«كفى».. متى يحين الوقت للنطق بحكم الإعدام على الظلم؟

ديالا غنطوس

طاقة الإنسان على الاحتمال عظيمة جداً، لكنها تصل في نهاية المطاف إلى مكان حيث يطفح الكيل، ولا تعود للإنسان أي قدرة على تحمل المزيد من الألم، فيخرج عن صمته ليقول كفى في وجه العالم بأجمعه، ويثور على واقعه الذي عايشه وتجرع بؤسه لأعوام لا تنتهي، ليتحول من خاضع.. مستكين، إلى كتلة من الإرادة والجبروت، لا تمنعه كل الحدود والقوانين عن قول كلمته... كفى!!

منذ أيام كنت أتابع فيلماً للممثلة البارعة جينيفر لوبيز، تحت عنوان (كفى – Enough)، وكان العنوان كفيلا بجذبي لمعايشة حلقات من الألم والصمت لامرأة تتكرر باستمرار في مجتمعنا، من دون أن تقوى على قول كلمتها في وجه رجل تجرد من كل صفات الرجولة، ليتحول إلى كتلة من خيانة وقسوة ونذالة، ببزة أنيقة وابتسامة رقيقة.

اقتبس هذا الفيلم الذي أخرجه المبدع مايكل أبتيد وأطلقه عام ٢٠٠٢ من الرواية الشهيرة «الأسود والأزرق Black and Blue) التي حققت أعلى نسبة مبيعات لصحيفة نيويورك تايمز عام ١٩٩٨ وهي للكاتبة الأميركية آنا كويندلن، وشارك في بطولة الفيلم النجم الوسيم بيلي كامبيل إلى جانب جينيفر لوبيز، التي أدت دور الفتاة الشابة «سليم» التي تعمل منذ فترة طويلة مع صديقتها المقربة جيني «جولييت لويس» نادلة في المطعم الذي يملكه ويديره صديقهما فيل «كريستوفر ماير»، وكان عملهما لا يكاد يغطي نفقاتهما المعيشية، إلى أن أتى اليوم الذي التقت فيه سليم في المطعم الذي تعمل به رجل الأعمال الفاحش الثراء ميتش هيلر الذي اعتاد الحصول على كل ما يريد في الحياة عن طريق أساليب الاحتيال والدهاء، تقع عينه على سليم، وبخدعة ماكرة انطلت عليها بمساعدة صديقه روبي استطاع الإيقاع بها وإسقاطها في شباكه ومن ثم يصل لمبتغاه في الزواج منها، تمر خمس سنوات بسرعة يعيشانها بسعادة ووفاق أنجبت خلالها سليم طفلة جميلة اسمها جرايسي، وتنتقل العائلة السعيدة للعيش في منزل فخم في ضاحية راقية وهادئة، إلى أن جاءت تلك اللحظة التي انقلبت فيها حياة الأسرة رأساً على عقب حين اكتشفت سليم عن طريق المصادفة خيانة زوجها لها وبشكل متكرر، وعند مواجهته بالأمر وإصرارها على الطلاق بان وجهه الآخر، ودأب على تعنيفها وإيذائها بشكل متواصل مستغلاً ضعفها كامرأة لا تقوى على صده، وعلى الرغم من شكواها لوالدته وتوجهها إلى الشرطة وإبلاغهم بأفعاله واستشارة أكبر المحامين إلا أن نفوذه وأمواله كانا كفيلين بإخراجه من كل الاتهامات والمشاكل، فلم تجد سليم حينها أي أمل سوى الهروب منه مع ابنتها من دون مال أو عمل إلى وجهة غير معلومة، لكن ميتش عبر اتصالاته يتمكن من إيجادها ومعاقبتها بالضرب المبرح، إلى أن تتمكن من الفرار مرة أخرى مع ابنتها التي أخفتها عند صديقتها ولجأت إلى والدها الذي لم يكن يعرفها أو يعترف بها يوماً، وتجهز نفسها بمساعدة من أبيها لمواجهة زوجها ميتش والانتقام منه بأسلوبه نفسه الذي يفهمه وهو القتال، حين اكتشفت أن الطريقة الوحيدة للنجاة من هذا الزواج لن تكون إلا بقتله، بعد أن بلغ صبرها مداه.

وأستذكر هنا فيلماً آخر يروي قصة مشابهة من حيث ما تحمله في طياتها من معاناة شديدة وصبر على ما لا يطاق، وهو فيلم «اتركها للسماء Leave Her to Heaven» الذي أخرجه جون ستال وكان من بطولة النجمين كورنيل وايلد وجين تيرني حيث أدى دور ريتشارد وإلين اللذين يلتقيان في رحلة على متن قطار وتنشأ بينهما علاقة غرام يتوجانها بالزواج، لكن بمرور الأيام واستمرار حياتهما الزوجية المبنية على الحب تتحول إلين إلى امرأة غيور للغاية وتستحيل مشاعرها تجاهه إلى حب امتلاك مشابه للحب الهوسي الذي كان بداخلها لأبيها المتوفى الذي أخذ مكانه زوجها ريتشارد، فتتجه لمحاصرته لعدم رغبتها بأن يعير ريتشارد اهتمامه لأي شيء أو أي أحد آخر سواها، فتلجأ إلى خطط عنيفة ودموية لمواجهة أي شخص يلفت ويشتت انتباه زوجها لاعتقادها أنه قد يسلبه منها، ومن المؤكد أن كل من يشاهد الفيلم سيشعر بالبغض تجاه شخصية إلين، إلا أنها في الوقت ذاته تثير مشاعر الأسف تجاهها، حين يتضح أنها تعاني فعلياً الشعور بانعدام الأمان والطمأنينة في داخلها بالتوازي مع إحساسها بالوحدة، ما يدفعها للسعي لاكتساب محبة الناس المحيطين بها ومودتهم وإثارة اهتمامهم وهذا ما أوصلها لاستبدال والدها الذي كانت تفرط في حبه بريتشارد، وهو ما أدى بها أيضاً لاعتبار ريتشارد ملكاً لها وحدها مع يقينها أن أي شخص يدخل حياتها ستضعه حُكماً في خانة العدو المهدِّد لعلاقتهما، وانطبق هذا الأمر على دافي شقيق ريتشارد على الرغم من أنه شاب مراهق ويعاني إعاقة جسدية إلا أن قسوتها دفعتها لإغراقه أثناء عطلة كان يقضيها في منزلهما، والشيء ذاته مع شقيقتها، حتى إنها باتت تغار من أعماله الكتابية التي يؤلفها، وتطور معها الأمر إلى إقدامها على الإجهاض لعدم رغبتها في إنجاب أطفال منه بسبب اعتقادها مسبقاً أن أي طفل سيأخذ حيزاً مهماً من اهتمامه بها، تفقد إلين أي قدر من السيطرة على عواطفها، وتصبح في النهاية قادرةً على فعل أي شيء يبعد الجميع عن زوجها، وبعد فوات الأوان يدرك ريتشارد الحد الذي بوسع إلين أن تصل له في سبيل تحقيق ما تريد، وأن الفائز الوحيد في جميع معاركها لن يكون سواها.

ونطالع قصة أخرى يربطها قاسم مشترك مع الفيلمين السابقين ألا وهو العنف والقهر، لكن بصورة مغايرة في الفيلم اليوناني «مس فيولانس Miss Violence» للمخرج ألكساندروس أفراناس الذي نال من خلال فيلمه جوائز عالمية عديدة إبان إطلاقه عام ٢٠١٣، يبدأ الفيلم بحدث مهيب بمشهد تظهر فيه طفلة تبلغ من العمر أحد عشر عاماً وهي تقدم على الانتحار برمي نفسها من شرفة المنزل لتموت فوراً في يوم عيد ميلادها، نرى تلك الابتسامة الهادئة مرسومة على وجهها وكأنها نالت السكينة التي افتقدتها ودفعتها للخلاص من حياة تعيسة. تباشر الشرطة التحقيق في الملابسات التي أحاطت بالوفاة على الرغم من تأكيد الأهل وإصرارهم على أن ما وقع كان حادثاً لا أكثر، ويتبين لنا أن أفراد الأسرة يقعون تحت سيطرة والدهم بشكل مطلق أي إنه يطبق أقسى درجات التسلط والديكتاتورية والتحكم بأدق تفاصيل الحياة في المنزل، وتتكشف تباعاً أسرار العائلة المفزعة، حيث إن المنزل يعتبر أشبه بسجن بمواصفات محددة يقبع فيه أعضاء العائلة ولا يغادرونه إلا فيما نَدَر، فنرى أفراد الأسرة واقعين في حالة إنكار تام للواقع المعيشي المؤلم المزري الذي يكاد يطبق على أنفاسهم وكأنهم مغسولو الدماغ، عدا العمل الكريه الذي أسسه الأب حيث إنه يستغل أبناءه في أعمال البغاء بهدف تحقيق المردود المادي الوفير، لكن أفراد الأسرة يبدون كمن يقعون تحت تأثير المخدر ولا يستطيعون الاستجابة لذلك، وهنا نعرف السبب الذي دفع الطفلة الصغيرة للانتحار حين أنهكت قواها ولم تعد تمتلك من الجلادة ما يتيح لها القدرة على الاحتمال، ذاك الواقع الذي عاشت تفاصيله الذي يصيب المشاهد بالصدمة والرعب والإزعاج فكيف بحال من يرزحون تحت سلطة هذا الأب ذي المشاعر المتبلدة؟!

واختم بقول للشاعر والروائي الأميركي الشهير ويليام فوكنر «لا تخف أبداً أن ترفع صوتك من أجل الصدق والحقيقة ومن أجل التعاطف ضد الظلم والكذب والطمع، لو فعل كل الناس ذلك.. فسيتغير العالم».